خطبة ( وقفة محاسبة مع نهاية العام )

الحمد لله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كلٌ يجري إلى أجل مسمى والله بما تعملون خبير .

جعل الكون يسير بانتظام عجيب ليعلم العباد تمام قدرته ، وكمال عظمته ، وإحسانه بتسخيره لهم .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وهو القوي العزيز ، وأشهد أنّ محمداً عبدُه ورسوله ، وخيرته من خلقه ، وأنصح الناس لأمته .

دعاهم لكل خير ، ونهاهم عن كل شر ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد /

فأوصيكم ونفسي أيها الناس بتقوى الله في السر والعلن ، فمن اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، يقول تعالى - آمراً عباده بتقواه ولزومها حتى الممات - :

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ "

عباد الله /

إنّ السبب الأعظم لصلاح النفس ونجاتها إنّما هو في النصح لها ، وإرشادها إلى ما ينفعها لتلقى الله تعالى وهو راض عنها ، وإنّ أعظم سبيل لتحقيق هذا المقصد العظيم هو معرفة الحياة الدنيا على حقيقتها ، والصدق في المحاسبة للنفس والأخذ بها لكل خير .

وإنّ اهتمام كثيرٌ منّا في الحياة الدنيا وانشغاله بها - وهي لا تستحق هذا - يحتاج منّا وقفات ومراجعات .

والدنيا - ياعباد الله - لا تُذم لذاتها ، وإنّما يذم عمل الإنسان المخالف للشرع والانغماس المبالَغ فيها ، الذي يُنسي الآخرة ، ويضيّع أو يُنقص من نعيمها الباقي .

ونحن مع نهاية عام هجري - الذي لا مزية له ولا تميّز - ولكنّ أفول عام وقدوم آخر فيه عبرة للمعتبرين ، وتذكرة للمتذكرين ، وتبصرة للمتبصرين ، الذين يرون أنّ سرعة الأيام مؤذنٌ بزوال الدنيا ، وقبله انتهاء العمر ، والمسلم موقنٌ أنّ الدنيا لا تدوم لأحد ، وأنّ النقلة حاصلة منها لا محالة ولكنّ مشكلتنا الكبرى- ياعباد الله - في طول الأمل ، واستبعاد الموت ، وكأننا لا نراه يخطف من حولنا في فجأة غير متوقعة .

أيّها المؤمنون /

إنَّ محاسبة النفس منهج شرعي سلفي فيه الخير الكثير لصاحبه ، قد رسمه لنا صحابةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم من السلف ممّن اقتفوا أثرهم ، وقد جعل كثيرٌ من أهل العلم قوله تعالى :

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18) }

هو الأصل في محاسبة النفس ، فمن علم أنّه صائر إلى ربه أيقن أنّه موقوفٌ بين يديه ، ومن أيقن أنّه موقوفٌ بين يديه آمن بالحساب والجزاء .

قال تعالى :

" يَا أَيُّهَاالْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ "

يقول الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

(حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتزيّنوا للعرض الأكبر: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيةٌ ﴾ [الحاقة: 18]

وقال الحسن: لا تلقي المؤمن إلا يحساب نفسه : ماذا أردت بعملي ؟ وماذا أردت بأكلتي ؟ وماذا أردت بشربتي ؟ والفاجر يمضي قدماً لا يحاسب نفسه.

وقال رحمه الله : إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت المحاسبة همته .

 وقال قتادة في قوله تعالى : (وكان أمره فرطاً) أضاع نفسه وغُبن ، ومع ذلك تراه حافظاً لماله ، مضيّعاً لدينه .

 وقال ميمون بن مهران : لا يكون العبد تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه ،

ولهذا قيل : النفس كالشريك الخوّان ، إن لم تحاسبه ذهب بمالك .  والآثار في الإرشاد لمحاسبة النفس لا تُحصى ، ذلك أنّ القوم كانوا نصحةً لأنفسهم ، جادين في إرادة الخير لها .

لقد أيقن أولئك العقلاء أنّ هذه الدنيا ميدان عمل ، ومورد تجارة مع الرحمن ، وأنّها لا تعدل شيئاً أمام الآخرة ، فلذا لم يركنوا وإنّما اغتنموها لتكون زادهم النافع ساعة القدوم على الله .

عباد الله /

إنّ غياب المحاسبة أو الغفلة عنها خطر على صاحبها وضرر عليه ، ففي ترك المحاسبة تزكية للنفس وهي الظلومة الجهولة ، وفيها الإبتلاء بطول الأمل وكأن بين العبد وبين الموت بوناً شاسعاً مع أنّه يراه يخطف غيره ، وهم في عنفوان شبابهم وتمام صحتهم وطول أملهم .

والتفريط في المحاسبة لا يجعل النفس تسعى في الإصلاح ، وتكميل النقص الذي يعتريها ، بل تبقى صائرة في غيها ، مستمرة في تقصيرها .

لقد عاتب اللهُ المؤمنين ، وحذرّهم طول الأمل الذي أضر بمن قبلهم ، فقال سبحانه :

" أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ " [الحديد: 16]

إنّ نفوسنا - يا عباد الله - بحاجة إلى أن تستقيظ من غفلتها ، وأن نكون صرحاء معها ، فإنّ القسوة قد طغت على القلوب - إلا من رحم الله - والغفلة قد رانت على النفوس ، وطول الأمل غلب عليها .

أين يقظةُ القلوب وتأثرها بموعظة الموت ؟

هل أيقنا مع صور الأموات - ونحن نحملهم إلى قبورهم وكأنّهم لم يعيشوا ساعة واحدة - أنّ الحياةَ قصيرةٌ جداً ؟

هل زهدتنا هذه الصور في الدنيا ، وزاد إقبالنا على الآخرة ؟

هل أدركنا أنّ بانقضاء عام أنّه قد نقص من عمرنا الذي قدّر الله أن نعيشه عاماً كاملاً قد انقضى قبله أعوام ؟

حريٌ بنا وقد مضى من عمرنا عاماً كاملاً ، أن نُحاسب أنفسنا وننظر لحالنا مع العبادات التي فرضها الله علينا .

كيف هو حالنا مع أعظم فريضة ( وهي فريضة الصلاة ) ؟

هل جعلناها أعظم شيئاً في حياتنا ؟ وصارت هي أعظم اهتماماتنا ؟ فحافظنا عليها واعتنينا بها وأديناها بإتقان ؟

إنّ الصلاة - ياعبد الله - هي أوّل ما يحاسب عليه العبد فإن صلحت صلح سائر العمل وإن فسدت فسد سائر العمل .

فإن كان ثَمّ خلل أو تقصير فيها فاستدرك ، فلا زال لديك فرصة قد فاتت على غيرك ممّن غادر الدنيا .

وكيف هو حالنا مع بقية الطاعات من صلاة النافلة وتلاوة القرآن والذكر ونحوها من الطاعات ؟

هل كانت هي همومنا في يومنا وليلتنا ، وكيف تزوّدنا بها ، أم أنّ الغالب علينا هو التقصير والكسل وغلبة التفكير في الدنيا ومتاعها الزائل ؟

ومما تجدر به المحاسبة عليه - أيضاً - إن نحاسب أنفسنا على البِّر والصلة .

فكيف هو حالنا معه ؟

إنّ الناظر بإنصاف في هذا الجانب يرى التقصير حاصلاً وظاهراً في حياة الكثير منّا ، فلا يأتي أحدُنا والديه إلا نادراً ، ولا يقوم بخدمتهم ، بل ويتأفف عند الحديث معهم في صور محزنة .

وقل مثل ذلك في قطيعة الرحم وعدم وجود الصلة إلا ما ندر لانشغالنا بحياتنا الدنيا ، مع أنّ البركة كل البركة في البر والصلة .

إن استدراك كل ذلك ممكنٌ - ياعباد الله - متى ما صدق الواحد منّا مع نفسه ، وكان جاداً في إصلاحها ، ورأى أنّ الحياة الدنيا فرصة لا تتكرر أبداً ، فاستعان بالله و علم أنّ الخير كل الخير في الأعمال الصالحة ، فبادر إليها .

بارك لي ولكم في القرآن الكريم ونفعنا بما فيه من الآيات والذكر الحكيم أقول ....

الخطبة الثانية /

الحمد لله على إحسانه ، والشكر له على توفيقه وامتنانه ، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد ، وبعد

أيّها المؤمنون

إنّ طول العمر فرصة للإنسان لتعديل المسار وتصحيح الخلل ، فكم يتمنى من انقطع عمله بالكليّة من أهل القبور ، أو عجز جسده من المرضى أن يكون مثل كثير من الأحياء والأصحاء ليستدرك مافات ، ويعوّض ماسبق ، ولكن هيهات هيهات مضى العمر وانقطع العمل .

لقد عاتب الله من فرّط في العمر وقد أمهله ، وأُعطي الفرصة ولكنّه لم يغتنمها ، فقال سبحانه :

" ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ " .

وقال صلى الله عليه وسلم - في فضل بيان طول العمر - : " ليس أحد أفضل عند الله من مؤمن يُعمّر في الإسلام بتسبيحه وتكبيره وتهليله " رواه أحمد وصححه الألباني .

قال صلى الله عليه وسلم :

" إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله ، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرًا " رواه مسلم .

وعند البخاري:

" لا يتمنى أحدكم الموت ، إما محسنًا فلعله يزداد ، وإما مسيئًا فلعله يستعتب " يعني : لعله يتوب .

وكما أنّ طول العمر مع حسن العمل خير للإنسان ، فإنّ طول العمر مع فساد العمل شرٌ ووبالٌ على صاحبه ، جاء في مسند أحمد أنّ رجلاً قال : يا رسول الله ، أي الناس خير ؟ قال : من طال عمره ، وحسن عمله قال : فأي الناس شر؟ قال: من طال عمره وساء عمله " وهو حديث حسن صحيح .

وعن سعيد بن جبير قال :

‏بقاء المسلم كل يوم غنيمة ، لأداء الفرائض والصلوات ، وما يرزقه الله من ذكره .

‏وروى ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن أبي عبلة قال :

‏بلغني أن المؤمن إذا مات تمنى الرجعة إلى الدنيا؛

‏ليس ذاك إلا ليكبر تكبيرة ، أو يهلل تهليلة ، أو يسبح تسبيحة .

فانظروا عباد الله كيف أيقن هذا الميت بقيمة وقدر الحسنات ، وأنهنّ الباقيات الصالحات ، فاغتنموا - يارعاكم الله - بقية حياتكم فيما يقرّبكم من ربكم ، ويُعلي درجتكم عنده .

هذا وصلوا على خير من اغتنم الحياة وتاجر مع الرحمن محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد أمركم الله بالصلاة عليه ....

كتبها / عادل بن عبدالعزيز المحلاوي